عماد مغنية إلى مثواه الأخير محفوفاً بقبضات المقاومين وقلوب المحبين

جمهور «حزب الله» يكرّم قائداً عرفه بعد رحيله.. ويرفع قبضته يلبي «سيده»

هو تكريم صاخب لرجل مرّ سراً فيهم. وحين قتل، ذهبوا يودعونه بحزن الغاضبين، لأنهم عرفوه بعدما رحل.

الرجل المختصر غربياً وإسرائيلياً بصورة الإرهابي المتواري الشرير المنزوعة عنه صفته الإنسانية قبل اغتياله وبعده، له رحيل معلن فخور هنا. تؤدى له مراسم قائد عسكري. يحمله جنود ويمشون به بخطوات مرصوصة. يعزف له لحن الموت والنشيدان اللبناني وحزب الله، وتؤدى له أناشيد باسمه. ويطل الأمين العام لحزبه غاضباً ليقول إن اغتياله هو بداية زوال إسرائيل، وليقول إنهم أرادوها حرباً مفتوحة فلتكن. وليقول عنه إنه «كان من القادة الكبار الذين كان جهادهم صدقة سر مع الله».

صدقة سر. أن يكون على هذه الدرجة من الأهمية ولا يعرفه جمهوره. لا يسمعه يحكي. لا يراه على شاشة. لا يعرف له وجهاً إلا بعد رحيله، هذا التفاني للرجل المحتجب جعل جمهور الحزب يأتي في أعداد هائلة، وقبل ساعات من بداية مراسم التشييع الرسمية كرد للجميل.

في اليوم المشهود ارتدت الضاحية، رجالاً ونسوة، الأسود القاتم ونزلت الى الشارع تحت مطر لم يهدأ. مداخل المجمع أغلقت بالمحتشدين يريدون الدخول الى مجمع امتلأ عن بكرة أبيه قبل ساعتين من بدء الحفل المقرر عند الثانية والنصف عصراً. وتحت السقف العالي للمجمع كان المراسلون الغربيون يوازون المحللين والعرب عدداً. الإعلاميون وحدهم كانوا حشداً. والرسميون بدورهم كانوا كذلك. وحزب الله الذي يبدو انه كان يفضل ألا يرتدي عناصره بزات عسكرية في الآونة الأخيرة، أحضر سرية كاملة من مرتدي البزات العسكرية ليتلقوا أمري «المكانك والتأهب العسكريين»، ويؤدون التحية العسكرية. والنعش المغادر مكانه على المنصة عاد محمولاً برسمية وتحت أعلام الحزب يحملها عشرات الشبان الكشفيين، ليسجى أسفل شاشة كبيرة عالية ينتظر الآلاف في الداخل بصبر إطلالة «السيد» عبرها ليقول لهم موقفه، وليخففوا بعضاً من غضبهم بإطلاقهم تلك الصرخة التي لا يكلون منها، وقبضاتهم تلكم الهواء: «لبيك يا نصر الله».

لم ينتظروا من أمينهم العام خطاباً أقل من هذا. هنا، الشاب العشريني الذي لم يرفع نظره عن الأرض للحظة، طوال ساعات، يقول حزنه إنه التقى الحاج رضوان وعرفه. لم يرفع رأسه إلا ليرى قائده يطل عبر تلك الشاشة العالية. حين يراه، يصير الوجه الحزين فجأة وجهاً مشحوناً بإصرار وغضب لا يعرف سبباً لهما إلا من يعتنق، حتى آخر فكرة في ذهنه، عقيدة هذا الحزب.

الشاب هو واحد من عشرات آلاف، حين يصرخون «لبيك يا نصر الله»، فهم يعنون عبارتهم حرفاً حرفاً. وهو واحد من مئات آلاف حين يقول لهم «السيد» إن إسرائيل إلى زوال، فلن يناقشوا الفكرة، بل سيبدأون بعد الأيام التي تفصلهم عن زوال عدو أبدي أزلي.

حين يحكي نصر الله عن عشرات آلاف المقاتلين، فالأكيد أن هذا المجهول الواقف منكسراً الآن سيشعر باعتزاز كبير، لأنه يعرف أنه مشمول بالرقم المهول.

انتظروه كي يشفي غليلهم من خبر أول من أمس، ومن الكلمات النارية في ساحة الشهداء في اليوم نفسه. وهو الواقف إلى منبر، أطل بما يليق بالمناسبة. يبدأ معتذراً ممن هم تحت المطر في الخارج لا ينتظرون منه اعتذاراً. يكمل ليكرم ابن الحزب وعائلته، ثم يبدأ صوته يعلو تدريجاً كما في كل مرة، وعلى عادة عقيدتهم، «رحماء في ما بينهم، أشداء على الكفار».

في غضبه الشديد، عاد خطابه إلى زمن آخر، إلى واحد من الأيام الثلاثة والثلاثين من حرب إسرائيل على لبنان. الرسائل مباشرة وواضحة ومن دون تورية إلى عدوه الخارجي والى خصمه الداخلي. ولم يكن مسبوقاً مثل هذا التعبير عن الاشمئزاز مما سمعه في ساحة الشهداء عن رجل لم يدفن بعد.

اما الرسالة الى محازبي حزب الله وجمهوره فكانت أكثر وضوحاً: إرفعوا معنوياتكم إلى الأقصى. ما زلت على ما تعرفوني. قوي صلب واثق شديد الثقة. وإذا كان السقف هو حرب مفتوحة، فلتكن حرباً مفتوحة. هم لاقوه بقبضات التأييد بانفعال أكبر من العادة. بدوا كمن يطمئن بعد تعب القلق.

كانوا بحاجة إلى خطابه، فقال ما هم بحاجة إلى سماعه. حين أنهى كلامه، بدوا كالمستيقظين من نوم عميق. أخرجهم خطابه من خدر اليوم السابق ومن خوفه. فجأة بدوا أكثر نشاطاً. ومشت في عروقهم الحيوية التي خرج بها إليهم.

تردد صوت تداخل الكراسي البلاستيكية بعضها ببعض ورميها جانباً لكي يتراصفوا ويؤدوا صلاة الميت على شهيدهم. وبعد الصلاة، لم يبق إلا الحزن الخالص، لمن يعرف الحاج معرفة شخصية، ولمن رأى في اغتياله خسارة للحزب الذي يمشي في خطه. رفع النعش على أكف العسكر. ورفعت الأكف مفتوحة تلوح مودعة. كثر البكاء فجأة.. وتدافع الشبان يريدون لمس النعش الذي مع خروجه من المجمع صعد الى المنبر الشيخ علي سليم، وبلحن بطيء حزين راح يردد العبارة الباكية: «في أمان الله.. يا حبيب الله».

في مكان آخر عند الحاجز الخشبي الفاصل بين النسوة والرجال، اتكأت نسوة غارقات في الاسود. المرور بهؤلاء مشهد وحده. يلوحن ببطء للنعش الذي يبتعد. يبكين بصمت. لا يعرف الواحد من يبكين. الرجل نفسه، أم الذكرى الخاصة، للإبن او الزوج او الشقيق، يعيدها فجأة رحيل القائد؟

الخروج من المجمع يحتاج الى وقت كثير. الطريق أمامه ملأى بالناس عن آخرها. وسيل البشر الذي مشى صار، كعادته في الضاحية الجنوبية، بلا بداية ولا نهاية. من اين يأتي الناس ليلتحقوا بالركب؟ من كل زاوية عند طرفي جادة هادي نصر الله ومن كل ما يتفرع عنها. والنعش يمضي في طريقه على الجادة خلف فرقة موسيقية وسرية عسكرية ورايات بالمئات ولافتة حملها شبان من السرايا اللبنانية تقول: لم يقفل الحساب، فلا تقلق. فتح الحساب ولن يغلق».

رشت الشرفات الأرز، وأعادت مكبرات الصوت في وداع مغنية لطميات من الأرشيف القديم لحزب الله. حين سرت شائعة بين الناس أن «السيد» يسير معهم، اخترقوا الصفوف المنظمة للفرقة الموسيقية وحملة الأكاليل وغيرهم كي يصلوا الى الجهة الأخرى من الجادة ويرونه. بدا كأن التشييع الرسمي قد انفرط عقده وان الجميع سيختلطون ببعضهم بعضاً. دقائق، وبدأ سطر طويل من الشبان متشابكي الأكف يتمدد رجلاً بعد آخر عند طرفي الطريق للفصل من جديد بين الجمهور والمولجين بالطقوس الرسمية من الموسيقى الى الأكاليل إلى آخره. فوضى شعبية دامت لدقائق، ثم اختفت. وذهب عماد مغنية الى روضة الشهيدين يرافقه إصرار هائل من حزب الله بأن يلقى تكريماً، ليس شعبياً فحسب، بل رسمياً مهيباً أيضاً.

في وداع الرجل ذي الألقاب العديدة، استعاد حزب الله واحداً من أيامه المشهودة في الضاحية. اهتم بالتفاصيل الدقيقة ليعيد بناء مسرح حزين هائل، عليه صور شهدائه الكبار. يمشي شهيد جديد فوقه. مسرح يغرق تحت مئات آلاف المناصرين يصرخون «الموت لإسرائيل»، وهم هذه المرة يشعرون، وقد قال السيد كلمته، بأن هذا الشعار الذي كان مبدأ وعقيدة، هذا الشعار دخل أخيراً حيز التنفيذ.

جهاد بزي

خلال الصلاة على الجثمان (علي لمع)

النعش في شوارع الضاحية الى روضة الشهيدين

أبرز الحضور

ممثل رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية وزير الخارجية منوشهر متكي، ممثل رئيس مجلس النواب نبيه بري النائب علي حسن خليل، الأمين العام للمجلس الأعلى السوري اللبناني نصري الخوري، ممثل المرجع السيد محمد حسين فضل الله نجله السيد علي فضل الله، مدير مكتب المرجع السيستاني حامد الخفاف، سفير دولة الغابون، السفير العراقي، سفير فنزويلا، السفير الإيراني، ممثل منظمة التحرير الفلسطينية عباس زكي، الوزير المستقيل محمد جواد خليفة، الوزير المستقيل فوزي صلوخ، النواب: حسن يعقوب، ناصر نصر الله، بيار سرحال، قاسم هاشم، نادر سكر، عباس هاشم، غازي زعيتر، سليم عون، عبد اللطيف الزين، اسماعيل سكرية. الوزراء السابقون: جبران عريجي، وئام وهاب، أسعد دياب، ميشال سماحة، نزيه بيضون، النواب السابقون: فيصل الداوود، كمال الخير، ناصر قنديل، فريد الخازن، جهاد الصمد، د. حسين يتيم. نقيب الصحافة محمد البعلبكي، قائد جيش لبنان العربي أحمد الخطيب، ممثلون عن قيادة الجيش وقوى الأمن الداخلي والأمن العام ووفود من: التيار الوطني الحر، حركة أمل، الجماعة الإسلامية، الحزب العربي الديموقراطي، التنظيم الشعبي الناصري، جبهة العمل الإسلامي، تجمع العلماء المسلمين، تجمع بيروت الكرامة، التنظيم الناصري الاشتراكي، رابطة الشغيلة، حركة فتح، حركة حماس، حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، الى ممثلين عن الفصائل الفلسطينية، الاتحاد العمالي العام، رابطة أساتذة التعليم الثانوي.